القسم السادس

علم النفس الاجتماعي

إذا كان إنشاء المجتمع المسلم هو غاية الدعوة. فإن السعي نحو كمال النظرية الإسلامية في النفس لا بد أن يمتد إلى مرحلة علم النفس الاجتماعي..

وإذا كانت الخلافة هي غاية المجتمع المسلم الناشئ عن الدعوة، فإن السعي نحو كمال النظرية الإسلامية في النفس لابد أن يمتد إلى مرحلة علم النفس الأممي.

وفي الابتداء نقرر أن الإنسان اجتماعي بطبعه، ودليل ذلك
السنن الاجتماعية التي يرتكز عليها هذا الطبع ومنها :

ـ الائتناس بالكثرة، والوحشة بالوحدة.

وفيها أن النفوس مجهولة علي وحشة التفرد وعلي الأنس بالرفيق
وفيها يراجع سنة الائتناس بالكثرة الداخلة تحت عنوان سنن التأثير و الاستجابة
(الفصل الخامس).

و من هذه السنن تأثر الناس بأفعال بعضهم البعض ، و في هذه السنة يقول ابن تيميه في كتاب الحسبة : " وما يحصل من الداعي بفعل الغير والنظير فكم من لم يرد خيراً ولا شراً حتى رأى غيره، ولا سيما إذا كان نظيره. ويفعل فعله، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض. (الحسبة : ص 155).

ولهذا لاحظ عمر بن الخطاب رفع الزوجات أصواتهن أمام أزواجهن، فذهب ليشتكي ذلك إلى رسول الله قائلاً : " إن نساء الأنصار كن يرفعن أصواتهن أمام أزواجهن فلما جاءت المهاجرات إلى

المدينة وجدن نساء الأنصار يفعلن ذلك ففعلن مثلهن "[1] .
ولما كانت الأمة : هي صيغة الجمع البشري.
وكانت العبادة هي علة هذا الجمع.
أصبحت الأمة هي صيغة العبودية البشرية لله سبحانه وتعالى.
وهذا معنى قول الله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدة وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (ولأنبياء:9).
فأصبحت الذات وهي أصل الجماعة والعبادة هي غاية الجماعة ...
لما كانت الذات هي المكون الأساسي للجماعة والمحقق الفعلي للعبادة أصبحت هذه العلاقة مضمون علم النفس الاجتماعي
و لما كان الوالدين هما أداة الوصل بين الذات والأمة فإن عبوديتهما أصبحت إتماماً لمعنى الانتماء للأمة من خلال العبادة
وكان أول دليل على ذلك هو قول رَسُولُ اللَّهِ : " ما أَصَابَ أحدا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ:
اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ.... موقف عبودية.. (الذات الإنسانية العابدة)
وَابْنُ عَبْدِكَ..... تعميق للعبودية..في أصل الذات (من خلال الأب).
وَابْنُ أَمَتِكَ.....تعميق أكبر للعبودية.. في وصل الذات (من خلال الأم).
نَاصِيَتِي بِيَدِكَ..... إثبات الخضوع الذاتي للهيمنة الربانية.

---

(1) [صحيح] أخرجه أبو داود في (النكاح / بـ في ضرب النساء / ح 2146) ، وابن ماجة في (النكاح / بـ ضرب النساء / ح 1993) ، والدارمي في " سننه " (النكاح / بـ في النهي عن ضرب النساء / ح 2219) من حديث إِيَاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ذُبَابٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ ذَئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ فَأَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ] ، وصححه الشيخ الألباني في (صحيح ابن ماجة / 1 / 335 / ح 1615).

مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ... إثبات الخضوع الذاتي لشرع الله.
عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ... إثبات الخضوع الذاتي لقدر الله.
أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسم هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا..."[1]
و تحدد من الحديث عبودية الذات الإنسانية من خلال التعريف بالله و بأسمائه و بصفاته و من هذا التحديد كانت أقصى فاعلية لهذه الذات و لذلك جاءت آيات سورة الأعراف وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ حيث صورت الآيات الموقف الإنساني في أحط صوره ليكون هذا الانحطاط هو الصورة المقابلة للموقف الإنساني في أكمل صوره بعد ارتباطه بربه و بأسمائه الحسنى.
و لذلك جاءت بقية الحديث ...
فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَعَلَّمُهَا و فَقَالَ : بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا "[2] .
فأصبح الحديث درساً لكل فرد في الأمة، لأنه درس (الذات) في المجتمع؛ لأن الرسول قال : " ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها.

---

(1) [صحيح] أخرجه أحمد في " مسنده " (1 / 391) من حديث عبد الله بن مسعود ، وصححه الشيخ الألباني في (السلسلة الصحيحة / 1 / 383 / ح 199)
(2) [صحيح] وقد تقدم في الذي قبله .

و قد جاء في الآية كما جاء في الحديث التعريف بالأمة والتعريف بالله؛ أما التعريف بالأمة فقد عرفتها الآية بالأمة الواحدة إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً.....ِ و وكان التعريف بالله في الآية بالربوبية والوحدانية ... وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (ولأنبياء:92).
وبإنشاء الأمة العابدة للرب الواحد تنشأ أقصى فاعلية لتحقيق الخير.
لذا يعود الحديث إلى أقصى فاعلية فردية وهي أثر القرآن في الإنسان.
أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء همي وحزني.
فالقلب هو الحياة، وأجمل الحياة وأحسنها هو الربيع، والربيع هو القرآن.
والبصر هو النور، والنور هو القرآن.
ثم يكون جلاء الهم والحزن – و هما أخطر أسباب ضياع النفس وتدمير الطاقة - لتتحقق موجبات السعادة الإنسانية وتنتفي موانعها.
وإذا كان الانتماء إلى الأمة هو أهم أصول الإحساس بالذات..
فإن ما يعمق هذا الارتباط هو البحث في ذاتية الأمة..
أي العناصر التي تتميز بها وتقوم ذاتها بها.
وأهمها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن هذا الفعل هو أهم العناصر الذاتية للأمة المسلمة. كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكثرهُمُ الْفَاسِقُونَ
(آل عمران : 110).

حتى أصبح التيار النفسي والاجتماعي للأمة مرهوناً بهذا الفعل، وهذا هو مضمون قول رسول الله عليه وسلم : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لكم ".

وقد ذكر رسول الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصيغتين تتضمن كل منهما نوعاً من الجزاء على ترك هذا الأمر. الأولى قوله : " والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليضربن الله قلوبكم بقلوب بعض، ويلعنكم كما لعنهم". يعني بني إسرائيل. والجزاء في هذه الصيغة هو ضرب القلوب بعضها ببعض. لأن القلب هو جوهر النفس والذات، فيكون الجزاء هو تآكل الأمة ذاتياً وهلاكها نفسياً، فيتبدد تكوينها وكيانها.

والصيغة الثانية هي قوله : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ "[1] .

والجزاء في هذه الصيغة هو أن تنقطع صلة الأمة جميعها بالله فلا يستجاب الدعاء، وبذلك يكون جزاء الصيغتين هو انقطاع أوصال الأمة بعضها ببعض، وانقطاع الأمة جميعها عن الله، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مادة البناء الاجتماعي للأمة المسلمة .

---

(1) [حسن] أخرجه الترمذي في (الفتن / بـ ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر / ح 2169) ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح اهـ .
أخرجه من طريق قتيبة : حدثنا عبد العزيز بن محمد عن عمرو بن أبي عمرو عن عبد الله الأنصاري عن حذيفة بن اليمان .
وقتيبة : هو ابن سهيد الثقفي ثقة ثبت . انظر " التهذيب " (8 / 358) ، والتقريب " (2 / 123) .
وعبد العزيز بن محمد : هو الدراوردي صدوق يخطىء إذا حدث من كتب غيره ، ومضى . انظر : " التهذيب " (6 / 353) ، و" التقريب " (1 / 512) .

وفي إطار مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كأساس لذاتية الأمة يتحدد مفهوم التكيف الاجتماعي الذي يحدد الدور الذي يمارسه الفرد في التأثير الاجتماعي بحيث يكون على علم بالشرع، لأن هذا العلم هو الذي يجعله قادراً على ممارسة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و بذلك يحمي العلم المجتمع من أن يتسلط عليه (الرويبضة) فيتكلم في أموره و مقدراته التافه السفيه الجاهل كما قال عليه الصلاة والسلام : (سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ. يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيَخُونُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ (قِيلَ : وَمَا الرَّوَيْبِضَةُ. قَالَ : الرَّجُلُ التَّافِهُ يتكلم فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ)[1].

كما أن هذا العلم يمنع من حدوث ظاهرة الهمج الرعاع لأن فقدان العلم يجعل الفرد ينساق وراء ما عليه الناس.كما رُوي عن علي ، رضي الله عنه، أنه قال : "الناسُ ثلاثةٌ: عالِمٌ ربَّانيٌّ ، ومُتَعَلِّمٌ على سَبيلِ نَجاةٍ، وهَمَجٌ رَعاعٌ أتْباعُ كلِّ ناعق"[2].

وكما كانت الأمة الواحدة، والعبودية لله الواحد؛ حقيقتان متساويتان في تحقيق الإحساس الشرعي بالذات كانت صيغة التعويض النفسي عند الخروج على الأمة هي المبالغة في العبادة،

---

(1) [صحيح] أخرجه ابن ماجة في (الفتن / بـ شدة الزمان / ح 4085) من حديث أبي هريرة ، وصححه الشيخ الألباني في (صحيح ابن ماجة / 2 / 374 / ح 3261) .

(2) [حسن] أخرجه ابن ماجة في (الفتن / بـ شدة الزمان / ح 4085) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ قِيلَ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ قَالَ الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ] ، وحسنه الشيخ الألباني في (السلسلة الصحيحة / 4 / 508 / ح 1887) .

مثلما كان من الخوارج، فبينما كان رسول الله يوزع الغنائم قال رجل : هذه القسمة لم يبتغى بها وجه الله. فأراد عمر قتله فمنعه رسول الله وقال له : "سيخرج من ضئضئ هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم وصيامه إلى صيامهم "[3]. و هذا في حالة خروج الفرد عن الأمة القائمة.
وكما كانت الأمة الواحدة والعبودية لله الواحد حقيقتان متساويتان في تحقيق الإحساس الشرعي بالذات، فإن الشيطان رضي أن يكون تفريق الأمة الواحدة بديلاً عن عجزه في منع العبادة لله الواحد. فقال : " إن الشيطان قد يأس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم "[4]. لأن هذا التحريش قد ينتهي إلى تفرق الأمة و ذهاب ريحها كما في الحالة السابقة.
ونواصل تفسير العلاقة بين الذات والأمة..
وأهم حقائق هذا التفسير أنها علاقة متداخلة..
فالإنسان بذاته وعبوديته أصل إنشاء الأمة..
والأمة هي البيئة الشرعية للإنسان بذاته..

---

(3) [متفق عليه] أخرجه البخاري في (المناقب / بـ علامات النبوة في الإسلام / ح 3610) ، ومسلم في (الزكاة / بـ ذكر الخوارج وصفاتهم / ح 1064) من حديث أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ فَقَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ وَهُوَ قِدْحُهُ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي نَعَتَهُ]

(4) [صحيح] أخرجه مسلم في (صفة القيامة والجنة والنار / بـ تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنه الناس / ح 2812) من حديث جابر .

وباعتبار أن الإنسان العابد لله هو الأصل.. فإن إيثار الإنسان لنفسه برضى الله والبدء بتحقيق عبوديتها يدل على المعنى..
وقول الله عز وجل : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً (نوح : 28). يمثل خطاً ثابتاً في عملية البناء الاجتماعي من خلال المعنى المطلوب إثباته. وهو البداية بالذات العابدة لله.
فالدعاء يبدأ لذات الإنسان.. ثم للوالدين، ثم لمن دخل بيته مؤمناً، ثم المؤمنين والمؤمنات.. (الأمة).

وإذا كانت إقامة المجتمع المسلم هي النتيجة الأساسية للدعوة فإن الخط النفسي الرابط بين الدعوة و المجتمع المقام لابد أن يكون ثابتاً في إطار هذه الدراسة و قد أثبت النبي هذا الخط في حديثه البادئ بمرحلة ما قبل البعثة ثم البعثة ثم الدعوة و المواجهة ثم إقامة المجتمع متضمناً إثبات النموذج الاجتماعي الإنساني و ارتباطه بالدعوة في البداية و الجنة في النهاية.
عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ، ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: "أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي، يَوْمِي هَذَا. كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْداً، حَلاَلٌ. وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ. وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ. وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ. وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَاناً. وَإِنَّ اللَّهَ

نَظَرَ إِلَىَ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلاّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَالَ: إِنّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ. وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَاباً لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ. تَقْرَأُهُ نَائِماً وَيَقْظَانَ. وَإِنّ اللّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحَرّقَ قُرَيْشاً. فَقُلْتُ: رَبّ إِذاً يَثْلَغُوا رَأسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً. قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ. وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ. وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ. وَابْعَثْ جَيْشاً نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ. وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ. قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنّةِ ثَلاَثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدّقٌ مُوَفّقٌ. وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلّ ذِي قُرْبَىَ، وَمُسْلِمٍ. وَعَفِيفٌ مُتَعَفّفٌ ذُو عِيَالٍ. قَالَ: وَأَهْلُ النّارِ خَمْسَةٌ: الضّعِيفُ الّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ، الّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعاً لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً. وَالْخَائِنُ الّذِي لاَ يَخْفَىَ لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقّ إِلاّ خَانَهُ. وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ". وَذَكَرَ الْبُخْلَ وَالْكَذِبَ وَالشّنْظِيرُ الْفَحّاشُ ، وَإِنّ اللهَ أَوْحَىَ إِلَيّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتّىَ لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ علىَ أَحَدٍ ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىَ أَحَدٍ "[1]

ففي الحديث تحددت صفات أهل الجنة الثلاثة باعتبارها أهم ركائز البناء الاجتماعي للامه

---

(1) [صحيح] أخرجه مسلم في (الجنة ونعيمها وصفة أهلها / بـ الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة / ح 2865) من حديث عِيَاض بْن حِمَار الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ : [أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً قَالَ اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ قَالَ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ قَالَ وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوْ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ] .

(1) ذو سلطان مقسط متصدق موفق ..
فالسلطة العادلة في الناس الأمينة على أقواتهم والتي يبلغ من أمانتها التصدق على رعيتها من مالها تستحق التوفيق والإلهام ؛ ولذلك كان الصدق والأمانة مقدمتان أخلاقيتان لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم ووحي الله إليه .
(2) و رجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم . . وأمام هذه السلطة رعية تعيش بالرحمة فيما بينها وبرقة القلب لكل ذي قربى ومسلم .
(3) و عفيف متعفف ذو عيال .. ومع المقسط المتصدق الموفق من ذوي السلطان ، والرجل الرحيم رقيق القلب على كل ذي قربى ومسلم من الرعية .. يكون مع الرعية أيضًا الرجل العفيف بطبعه والمتعفف عن السؤال رغم حاجته وهو ذو عيال .
وهذه الصفات هي عناصر البناء الاجتماعي للدولة المسلمة .
وبهذه الصفات يكون المجتمع المسلم وتكون الأمة وتكون الجنة .
كما تحددت في الحديث صفات أهل النار الخمسة باعتبارها أخطر أسباب الانهيار الاجتماعي للامه
(1) الضعيف الذي (لا قوة له) ، الذين هم فيكم تبعًا لا يبتغون أهلاً ولا مالاً .
الحثالة الفارغين كماله العدد .
(2) والخائن الذي لا يخفى (أي لا يظهر) له طمع وإن دق إلا خانه .
و هؤلاء هم الخونة بطبعهم وتكوينهم وتصرفهم .
(3) و رجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك .
المخادعون : عن العرض والمال .
(4) و البخل والكذب .

(5) والشنظير سيئ الخلق .
وفي رواية : وأن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد .
فالتواضع يمنع الفخر الذي إذا امتنع امتنع معه البغي .
وبصفات أهل النار تكون نهاية المجتمع ونهاية الأمة .. وتكون النار .
و لذلك كان إنشاء الأمة مرتبطاً بالالتزام بالحق و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و كان أول أحكام هذا الإنشاء هو البيعة وكانت البيعة بدورها مرتكزة على الطبيعة النفسية للإنسان المسلم .
ولذلك كان من بدايات هذا التعامل هو دخول المدينة طلباً لحماية الأنصار " مما تحمون منه نساؤكم وأولادكم "[1]، وكان هذا الأمر هو الذي يتفق مع الطبيعة العربية.
والبيعة في الأساس موقف نفسي وقلبي ولذلك يقول الرسول" أعطاه صفقة يمينه وثمرة فؤاده "[2] .

---

(1) [حسن لغيره] أخرجه أحمد في " مسنده " (20 / 270) ، والحاكم في " المستدرك " (2 / 624) وصححه ووافقه الذهبي ، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (3 / 175) : " هذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه " ، وحسن الحافظ إسناده كما في " الفتح " (15 / 75) ، وقال عنه الألباني في " حاشية فقه السيرة " للغزالي صـ 157 : " وفيه علة هي عنعنه أبي الزبير وكان مدلساً ، وليس من رواية الليث بن سعد عنه فلعل تصحيحه أو تحسينه لشواهده . اهـ ، وأصله في الصحيحين ، والله أعلم .

(2) ورد هذا المعنى عندما اجتمعوا في الشعب ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء ومعه العباس بن عبد المطلب ، هو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول من تكلم العباس فقال :
" يا معشر الخزرج – وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها – إن محمداً منا حيثُ قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن رأيهم مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ، ومنعه في بلده ، وأن قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له ذلك بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك فإنه في عز ومنعة من قومة وبلده .
قال كعب بن مالك : فقلنا له : " قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ..... عند أحمد في " مسنده " (20 / 271) ، وابن هشام (2 / 94 – 97) ، والهيثمي في " المجمع " (6 / 923) ، والبيهقي في " الدلائل " (2 / 444 – 447) ، والبيهقي في " السنن " (9 / 9) ، وابن حبان في موارده صـ 408 ، والحاكم في " المستدرك " (2 / 624) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " ، وقال الذهبي : " صحيح " ، وصححه الشيخ الألباني في " حاشية فقه السيرة " صـ 159 .

فاليد ليست فارغة؛ إنما معها ثمرة الفؤاد، والفؤاد هو ثمرة القلب فما بالنا بثمرة الفؤاد ؟ والبيعة : توازن تفسيقي سلوك الفرد و في العلاقة بين الفرد والأمة ولذلك قالت الصحابة :
بايعنا رسول الله على :
السمع والطاعة : الولاء
في العسر واليسر : في كل الأحوال الواقعية.
والمنشط والمكره : في كل الأحوال النفسية.
وعلى أثرة علينا : الواجب النفسي الشرعي في العلاقة بالغير.
وعلى أن ننطق بالحق أينما كنا : الواجب الشرعي في العلاقة بالامه .
" لا تخاف في الله لومه لائم "[3].

وفي إطار نقاط الانتماء الأساسية : (الذات – الأمة – العبودية) يكون نظام الانتماء.. و هو الحكم و السلطة و الخلافة .

(3) [متفق عليه] أخرجه البخاري في (الأحكام / بـ كيف يبايع الإمام الناس / ح 7199) ، ومسلم في (الإمارة / بـ وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها / ح 1709) من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : [بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ] .